

عائد من الظلام

بقلم / أعلام النصر

قِصَّةٌ مَثَلٌ لَوَاحِدَةٍ مِنْ جَرَائِمِ الصَّليب



عائد من الظلام!

- الحلقة الرابعة -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصة:

عائد من الظلام!

- الحلقة الرابعة -

#بقلم: #أحلام-النصر

(قصة مثل لواحدة من جرائم الصليب)

#قناة-مؤسسة-أوار-الحق



(٨)

في مكان آخر بعيد، في القارة الأوربية، وفي أحد المكاتب الفخمة؛ كان ضابطان يناقشان بعض الأمور السياسية.

- ما الحل معهم، وهم حتى إذا احترقوا عادوا ونبتوا من الرماد؟

- أما خطر لك أن تجرف الرماد؟!

- ألتسخر مني يا "إدوارد"؟! أظن فعلاً أننا قادرون على هزيمتهم يوماً من الأيام؟!

نفث "إدوارد" دخانَ سيجارته، وبدأ برماً بهذا الحوار الذي يعكر استمتاعه بدفء المكان، وقال بكسل -بينما كانت الفاجرة واقفة على مقربة منه، تصب له الخمر في صمت:-

- ما الذي يجعلك تشك في ذلك يا "جاك"؟!

تنهد "جاك" المتحمس، ورفع كتفيه في يأس، وقال مقطّباً جبينه:

- بل أخبرني أنت ما الذي تراه يدفع إلى التفاؤل، وإلى توقّع شيء مختلف!! لاحظ
أن كلّ صاحب فكرة أو مذهب ما، تقريباً تموت فكرته أو تضعف بموته، إلا هؤلاء
القوم!

ووضع يديه على صدغيه وتابع:

- يا رجل سيصيبونني بالجنون! وأراهن أن كثيرين مثلي!! كلما قتلنا منهم قائداً ظهر
غيره، ليس ذلك مهماً بقدر أهمية موضوعنا الأساسي: أن قضيتهم نفسها لا تموت
ولا تهتز!! إنهم... إنهم يتعاملون مع دينهم وكأن نبيهم لم يمت بعد!!!

وتابع "جاك" بحرقة وهو يكاد يبكي:

- كلما ظننا أننا اعتلينا قمة ما: اتضح أنها مجرد صخرة تحت قدم شاهقة! وإذا ما
أدركنا هذه الحقيقة: تفاجأنا بأن هذه الصخرة ذاتها قد تفتتت تحت أقدامنا
وأسقطتنا!! صدقني يا "إدوارد"؛ نحن وحدنا من نخسر!! قياداتنا ينفقون أموال
الضرائب لقتل هذا وذاك من المسلمين، وهم في وقت قصير: يعيّنون قادة جددًا،
ويستمرون بإصرار أكبر!! هذا بحق يغري بالجنون!!

قال "إدوارد" دون اكتراث:

- المهم أن رواتبنا موجودة، وليفعل الجميع ما يحلو لهم.

وتابع بنخب وهو يتسم:

- ولا تنسَ أن القيادات العربية الحمقاء تدفع عنا فواتيرَ كثيرة، دون أن تهتم حتى بأن شعوبها بدأت تشكو من الفقر!

قال "جاك" متنهداً:

- هذا كله لا يعطينا الحلَّ الجذريَّ، إن هي إلا مسكَّاتٌ لنستمر في المسار نفسه.

سأل "إدوارد" بضجر واضح:

- وماذا تريد؟!

هتف "جاك" بحماس:

- أن نقضي عليهم قضاءً شاملاً لا ينهضون بعده أبداً!

رفع "إدوارد" كأسه ببرودٍ لا يشبه في شدته إلا اندفاع "جاك" وحماسه، ورشف قليلاً منه، ثم قال:

- كفَّ عن الدراما يا "جاك"، كيف تبيد قوماً لا يخافون الموت، بل ويتسابقون على ما يسمونها الشهادة؟!

وتجشأ ثم تابع:

- صدقني؛ لا حيلة لنا إلا مسح أفكارهم، ومحاولة إضعافهم؛ لنبقى أقوى منهم،
وظاهرين عليهم، أما أحلامك الوردية هذه؛ فستعكر حياتك وحسب.

تملّك "جاك" الإحباط وسكت، فرمقه "إدوارد" بنظرة جانبية، وقال مبتسماً:
- ها أنت تكفّ عن الثرثرة أخيراً!

ولكن فكرة أخرى خطرت لـ "جاك"، فقال وهو يضرب الطاولة بكفه متحمساً
كعادته:

- لدي اقتراح..

تنهد "إدوارد" بئأس وقال بصوت خفيض:

- ها نحن نعود من جديد!!

والتفت إلى "جاك" مريحاً وجهه على كفه، وقال ساخراً:

- أتحفني باقتراحك يا سيد "جاك"!

هتف "جاك" بنخبث:

- ماذا لو داهنّاهم، وقبلنا بما يريدون، حتى يتسنى لنا العمل في الخفاء ضدهم، ولو
بالتدريج؟!

قهقهه "إدوارد" بصخب، ثم قال:

- إلى أي مستوى من التعاسة واليأس وصلتَ حتى تتكلم كأولئك الذين يجاملوننا بحجة التدرج والتريث؟! خِلْتُ نفسي مستمعاً لخطابِ أحدِ أغبيائهم!

نكس "جاك" رأسه منحرجاً، وقال بخفوت:

- لا أشكك في ثقافتك، ولكنني أحاول إيجاد حل لهذا الموضوع المتعب.

زفر "إدوارد" ثم قال:

- مع هؤلاء لا يوجد حل يا "جاك"؛ إنهم ليسوا كالأغبياء الذين يمكنك شراءهم بمنصب أو مال، حتى إذا تأكدت من انتكاسهم قتلتهم دون ضجيج! هؤلاء أمرهم مختلف تماماً؛ فهم الذين ترى فيهم الإسلام حاكماً مسيطرًا، إنهم إصرارٌ إذا حاصرته انفجر، وإذا تركته انتشر، فكن واقعياً، ولا تطلب المستحيل، قصارى ما يمكننا فعله أن نبغض الناس فيهم، وأن نحول دون سيطرتهم على أي مكان واتصالهم بالناس؛ لئلا تنكشف أكاذيبنا فتزداد ضعفاً.

تمم "جاك" بحسرة:

- كل هذا لا يكفي، لماذا ليسوا كآخرين!!؟

ابتسم "إدوارد" ساخرًا، وتهد قائلاً:

- ايه! لو أنهم كالأخرين لما وقف في وجهنا أحد! ولأمكننا أن نجعل الجميع عبيداً لنا دون مشكلة! لكنهم مختلفون!

وفي جديةٍ نادرةٍ منه؛ تابع:

- عندك أولئك الأغبياء مثلاً؛ إلى اليوم يتكلمون عن إيجابيات تافهة لحملة "نابليون" على مصر، كأنما الأمر كان يستحق كل تلك الدماء التي أريقت، والأعداد الهائلة التي تشرّدت وعانت! وأمثلة هذا كثيرة؛ هؤلاء يعتبرون احتلالنا فتحاً ومقاومتنا جريمة، ويخدعون أنفسهم عن حقيقة فشلهم وتخاذلهم بل واحتقارنا لهم، وأولئك يتقربون إلى ربهم بقتالنا، فلا حل أبداً يا عزيزي المتحمس!

قال "جاك":

- لذلك أنا لا أتكلم عن الحمقى؛ فما أسهل أمرهم وأحط شأنهم! بل أتكلم عن المتشددين؛ إذ من حماقة أن نظن كسب الحمقى كسباً، وهم أصلاً لا يقدمون ولا يؤخرون، ولا يهمهم سوى امتلاء بطونهم وجيوبهم.

أشعل "إدوارد" سيجارة جديدة، ونفث دخانها قائلاً دون اكتراث:

- لهذا لم يكن طليبي لك أن تكون واقعياً: ناتجاً عن فراغ.

أطلقت الفاجرة ضحكة خليعة، وقالت لـ "إدوارد":

- كلامك مقنع تمامًا، ولكن.. أما ملكتَ من هذه الأحاديث يا سيدي؟! ألا
ترغب في بعض الراحة؟! ما رأيك في نزهة قصيرة؟!

رمقها "إدوارد" بـشمئزاز، وقال باحتقار:

- ما رأيك أن تنظّم جدول يومي أيضًا؟! من تظن نفسك لتشاركي في
الحديث؟! أنت هنا لخدمتي دون أن تفتحي فم بكلمة!

قالت بانكسار وخوف:

- هو مجرد رأي يا سيدي من أجل راحتك لا أكثر! أرجوك لا تغضب!

زجر "إدوارد":

- مجرد رأي!! أي قيمة لك ولرأيك؟! ما أنت إلا أداة للتسلية وحسب!

فكر قليلاً، ثم قال ساخرًا:

- هه! قال تعبر عن رأيها قال!! لعلك تأخذين شعاراتِ تحرير المرأة على محمل الجد؟!
هه!

وتابع بهمس كالفحيح:

- ألم تفهمي يا حمقاء أن أكبر هدف من هذه الشعارات: أن تكون النساء في متناول أيدينا دون عناء كلها رغبنا بالتسلية؟؟!

وأمام نظراتها الذاهلة، ودموعها الذليلة؛ رمى لها بحفنة بسيطة من المال، وقال باحتقار:

- خذي هذا واغربي عن وجهي؛ مع هذا المبلغ: لن تضطري أسبوعاً كاملاً إلى عرض جسدك في المرقص يا.. يا فنانة! ههههه

لملت الفاجرة نفسها، وتناولت المبلغ -فهي تحتاجه في النهاية!-، وخرجت من الغرفة خزينة منكسرة، تفكر برعب في مصيرها بعد سنوات؛ فالآن يعاملونها بهذا الاحتقار وهي ما تزال شابة، فأى مصير ينتظرها عندما تصبح عجوزاً؟! وأغمضت عينيها على دموع حارقة مريرة، وهي تغادر المبنى بسرعة.

أما "إدوارد" و"جاك"؛ فقد تابعا كلامهما كأن شيئاً لم يكن، واتفقا أخيراً على أن مسابقة القساوسة القريبة ستكون ضربة للمسلمين؛ إذ سيتم تجنيد من كانوا في طفولتهم مسلمين: ضمن جيش الصليب.

أما "جاك"؛ فلم يكن واثقاً من كفاية الفكرة؛ إذ إن مشكلته كامنّة في عجزهم عن محاربة الإسلام نفسه، ويرى أنهم يضيعون أوقاتهم وأموالهم دون جدوى، وبنفس الوقت: لا يجدون بديلاً عن المحاولة، ولا حلاً جذرياً للأمر.

وأما "إدوارد"؛ فكان مسترخياً غير مبالي؛ إذ كل هممه: أن هذه الفكرة ستخدر القيادة حتى حين، وإن أثبتت فشلها لاحقاً - كالعادة - في هزيمة المسلمين، فحسبه أنه سيقبض راتبه مع مكافأة على الفكرة وما احتاجته من تخطيط طويل، وهذا كل ما يهمه!

(٩)

حَسَبَ "ألفرد" أن "مارك" سيزداد انهياراً وعصبية بعد الحجر الذي رماه به مؤخراً، طبعاً لم يكن يظن أنه سيهرع إليه متنازلاً عن "مادو" بهذه السرعة؛ فطبيعة "ألفرد" الثلجية لا تتركه يذهب في التفاؤل إلى هذا المدى البعيد، غير أنه كان يتوقع مزيداً من الانهيار الذي يسليه ويُدنيه من غايته، مزيداً من الأخطاء التي يمكنه اصطیادها، مزيداً من أي شيء سوى هذا الهدوء الغريب المريب!!

كان غارقاً في أفكاره، وهو جالس على كرسي في الساحة، يرى "مارك" يخرج من قاعة ويدخل إلى أخرى، بهدوء واتزان، والأُنكى أنه لم يُعرج على "مادو" مُذْ سمع بخبر زيارة المسؤول المرتقبة.

ودمدم "ألفرد" ساخطاً:

- اللعنة عليك يا "مارك"! ترى ما الذي تخطط له أيها العجوز؟! وأي عاصفة تنتويها
بمحاقتك بعد هذا الهدوء؟!

واتسعت عيناه دهشة، وهو يرى "مارك" متجهاً إلى القاعة التي تضم أقفاص
التجريب، ثم يخرج منها وهو يسحب طفلين صغيرين باكيين، بمساعدة بعض
الطلاب، عرف منهم "ألبرت" رئيس الطلاب، والذي بدا مرتبكاً لرؤيته، على
عكس "مارك" الذي توقف لحظة ليستدير ويرمق "ألفرد" بابتسامة خبيثة، ثم أمر
الطلاب باللاحاق به، ودخلوا جميعاً إحدى القاعات، وبعد دقائق؛ دوى صوتُ
الطلقات، وانفتح الباب ليخرج الطلاب حاملين جثتين بأستين، وانتظر "ألفرد"
المذهول خروج "مارك" الذي لم يخرج، ولم يحتمل "ألفرد"؛ فنادى على "ألبرت"
وسأله بحدة:

- أين القس "مارك"؟!

قال "ألبرت" وهو يحاول السيطرة على رعبه وتلعثمه:

- إنه.. إنه في الداخل مع شيء الخاص!

ردد "ألفرد" بذهول:

- شيء الخاص؟! هل تعافى الصرصار الأحمق "مادو" من صرعه قبل أن يصبح
ملكياً؟!!

وأفاق من ذهوله؛ ليكتشف أنه وحده في المكان، وأن "ألبرت" انفلتَ سريعاً واختفى، الأمر الذي لم يكن من عادته أبداً، على الأقل كرئيس للطلاب!

ومسح "الفرد" وجهه بيده مختاراً مفكراً، وتساءل وهو يحدث نفسه:

- ثم أي تدريب يكون في هذه الساعة قبيل انصراف الطلاب إلى مهاجمهم؟!
أُعقل أن "مارك" متحمس لهذه الدرجة؟!!

وزفر متنهداً ثم قال:

- لستُ مستريحاً للأمر، لا بد أن أفهم ما الذي يجري!

(١٠)

في وقت سابق..

كان القس "مارك" يتحدث بانفعال مع موظف الكنيسة، الذي كان مختاراً كيف يتصرف مع القس الغاضب!

- صدقني يا سيدي! إنني أريد مساعدتك، ولكن هذا مخالف للقوانين!

هتف "مارك" ساخراً:

- ما أشد اهتمامك بالقانون!

قال الموظف بكياسة:

- الأمر أنني مهتم بسلامتي الشخصية؛ فهذا الأمر إذا انكشف سيكون موقعي صعباً.

- نفذ فقط ولا عليك من الباقي!

- كلكم تقولون هذا الكلام!

اتسعت عينا "مارك" بدهشة، وقال:

- من "كلنا"؟! هل جاء أحد قبلي إليك؟!!

تلعثم الموظف ثم قال:

- يا سيدي؛ إنك أنت مَنْ رفع اسم "مادو" ومنذ وقت طويل، مِنْ بين كل
أشياءك الخاصة، لا يمكنك تغيير هذا الآن!!

زجر "مارك":

- وأنا آمرك أن تغير الاسم المقترح في سجل المسابقة وفوراً!

قال الموظف بملل:

- أخبرتك أن هذا مخالف للقوانين!

سأله "مارك" بغیظ:

- مَنْ الذي سيعرف أنك قمتَ بذلك؟!

قال الموظف:

- ضميري يا سيدي! وواجبي المهني!!

ابتسم "مارك" ساخراً، وأخرج حفنة من المال، وقال:

- هل هذا كافٍ ليغرقا في نوم عميق؟!

ابتسم الموظف، وتناول المبلغ وعدّه، ثم قال بنخبث:

- زده قليلاً يا سيدي؛ حتى لا يتكلّمها خلال نومهما!

تنهد "مارك" وأخرج مبلغاً آخر، وهو يقول:

- لستَ ظريفاً أبداً!

ومدّ يده بالمبلغ، فكاد الموظف يأخذه لولا أن "مارك" أعاد يده قليلاً وقال بحزم وقسوة:

- لن تعرف الراحة يوماً إن عرف أحد شيئاً عن هذا الموضوع.

قال الموظف بكياسة:

- كن على ثقة من هذا يا سيدي!

ابتسم "مارك" بخطرسة، فتابع الموظف مازحاً:

- هل لي إذن بالعقار المنوم؟!

تبدلت ابتسامة "مارك" إلى اشمئزاز، تلاه برمي المبلغ على الطاولة، وانصرف بسرعة.

وحين وصل إلى المعسكر؛ طرقه طرقات محددة، ففتح له "ألبرت" القلْق البابَ،
وسأله "مارك" بسرعة:

- هل المكان خالٍ؟!

أوماً "ألبرت" برأسه مطمئناً، فدخل "مارك" وهو يتنهد بارتياح، ثم قال:

- شكراً لك يا "ألبرت"، سأتكلم مع معارفي لترقيتك سريعاً بعد الدراسة، فقط عدني
ألا تخبر أحداً بخروجي هذا ولا سيما ذلك العجوز "ألفرد"!

- اطمئن يا سيدي.

سرح "مارك" قليلاً، ثم تتم متنهداً:

- أخيراً سأرتاح من مصائب "مادو"!

استغرب "ألبرت"، وزَوَى بين حاجبيه، ولم يفهم ما علاقة خروج القس "مارك"
في تلك الساعة بـ "مادو" ومصائبه، إلا أنه لم يتدخل، لا سيما وقد اتضح الأمر في
اليوم التالي؛ عندما قام القس "مارك" بتدريب شيء خاص آخر، وفي وقت مغاير
لأوقات التدريب، ودون أن يزج نفسه بالسؤال عن "مادو" ووضعه أو حتى
صحته!!

لم يكن منشأ قلق "ألبرت" إلا من أن يُزجَّ به في صراع القساوسة هذا، وهو ملزم بطاعتهم جميعاً، والكارثة أن طاعة أحدهم لا تكتمل إلا بمعصية الآخر!!

انتهت الحلقة الرابعة

...يتبع

